كلمة التحرير

بصدور هذا العدد يكون المجلد التاسع من مجلة التجديد قد اكتمل واكتملت بذلك دورة تسع سنوات من عمرها الذي نأمل أن يُمَدَّ فيه أجيالاً وأجيالاً وراء الجيل الذي شهد ميلادها وواكب نشأتها، فتكون شاهداً وفاعلاً في مسيرة البحث عن الوجهة وإعادة صياغة الهوية التي ما انفكت الأمة الإسلامية بقواها الاجتماعية والسياسية الحية وتياراتها الفكرية والثقافية الأصيلة تناضل في سبيلها منذ ما يقرب من قرنين من الزمان، مهما تناءى بها المكان واختلفت فيما بينها الأساليب وتنوعت لديها الخطط وتباينت الوسائل. فهناك جوامع تسمو على كل صور التباين ومظاهر التنوع والاختلاف التي يمكن رصدُها بيسر في تاريخ الأمة الحديث والمعاصر، وهي التي تسوِّغ لنا الكلامَ على إشكالية مركزية ما فتئت تستقطب همومَ أبناء الأمة جيلاً بعد جيل وتشحذ طاقاتها صوب قضايا مشتركة وغايات موحدة. وإن تلك الجوامع هي ذاتها ما يجعل أعداء الأمة ومناوئيها ينظرون إليها بوصفها كياناً واحداً فيكادون يرمونها عن قوس واحدة على ما بينهم من تباين في البواعث وتخالف في المقاصد.

وليس من غرض هذه الكلمة بسطُ القول في تلك الهموم وتفصيلُه في تلك القضايا والغايات، فذاك مطلبٌ مقامه غير هذا المقام وشأنٌ لا يتسع له هذا المكان. وربما أمكننا هنا الاجتزاءُ عن ذلك بوقفة قصيرة عند أمر أوحى به النظرُ فيما يمكن أن يكون أحدَ الخيوط الناظمة للمادة المنشورة في هذا العدد، ألا وهو مسألة "العولمة" بما تحمله من فرص وما تطرحه من تحديات في سياق التحولات بعيدة المدى التي تشهدها الإنسانية على المستويات الروحية والاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية وغيرها، مما يوشك أن يهز كل أوضاعها ويعصف بكل أحوالها ويأتي على كل ثوابتها. وإنه لمن خطإ التقدير وخطل الرأي أن يحسب امرؤ أن التعامل مع ظاهرة العولمة بأبعادها هذه يمكن أن يحصل من موقع الاختيار الهادئ المجرد، بحيث يكون في مكنة فرد أو شعب أو أمة النأيُ عنها وتجنبُها والعيشُ في أمان نفسي فيسد على نفسه المنافذ اكتفاءً بمعطيات الذات وتقوقعاً على مقدراتها، فذاك وضعٌ لم يكن ميسورَ التحقيق في الماضي وهو أبعد ما يكون منالاً في الحاضر والمستقبل، على الأقل في الأفق الزمني القريب. إن ظاهرة العولمة توشك أن تكون قَدَراً تاريخيّاً يسم المرحلة الحاضرة والمقبلة من مسيرة الإنسانية، وسيكون من العبث التفكيرُ في القفز على هذا القدر وتجاهله، كما سيكون من قبيل الانتحار الاستسلامُ له والتسليمُ به جملة وتفصيلاً، وسيكون كذلك من قلة الحكمة وإهدار الجهد السعيُ لرفعه مرة واحدة بمجرد رفضه ومناوشته خبطَ عشواء.

فكون ظاهرة العولمة قَدَراً من أقدار تاريخ الإنسانية في عصرنا أمر بات في عداد معطيات الواقع المتعيِّن للاجتماع الإنساني على كوكب الأرض الذي

زُويت للناظر كل زواياه وتقلصت أطرافُه وتقاربت مسافاتُه، وتسارعت حركةُ التاريخ فيه بما لم يسبق له مثيل، فإذا الهويات الثقافية للشعوب قد تشابكت ومصائر الأمم قد تراهنت ومصالحها ومفاسدها قد تواشجت. إلا أن هذا لا يعني ولا ينبغي له أن يعنيَ أنه قدرٌ لا مجال لمناضلته ومناهضته ومغالبته بأقدار أخرى، طالما لم تتعطل في الكون سنةُ التدافع وطالما أن الإنسان هو الإنسان يحمل بين جنبيه نفحةَ الروح التي تهفو وقبسَ العقل الذي يُبصر وإرادة الفعل التي تدفع. فالواقع في الاجتماع الإنساني، مهما يكن من أمره استمرارًا واستقرارًا، يمكن بل يجب أن يرتفع، وخاصة إذا كان يجافي الحقَّ وينافر العدلَ ويباين طبائعَ الأشياء ويصادم فطرة الخلق في الأنفس وفي الآفاق، اللهم إلا أن نَعُدَّ الإنسانَ مجردَ جمادٍ من جمادات الكون أو سائمة من سوائمه لا يتحرك إلا بفعل قوة القصور الذاتي بعيداً عن كل قصد واختيار.

إن القوى القليلة النافذة اليوم في الواقع العالمي للإنسانية لا تدَّخر وسعاً ولا تترك سبيلاً ولا تفوِّت سانحةً من أجل فرض نمط فرد على شعوب الأرض قاطبة، تحكمًا في أوضاعها وهيمنةً على مقدراتها وتلاعبًا بمصائرها ،وفقاً لرؤية مادية علموية وانطلاقاً من فلسفة دهرية وضعية، لا مجالَ فيهما لقداسة كائن أو قدسية قيمة. نشهد تجلياتِ ذلك وتعيناته في مجالات الحياة كافة، تسري ناعمة طورًا، وتقتحم عاصفة طورًا، وتزمجر مدمرة تارة، لا تُعوزها حيلةٌ من تستُّرٍ وراء قيمة أو تبرقعٍ بشعار أو استغلالٍ لأطرٍ ومؤسسات قامت باسم الإنسان والإنسانية، وهي في كل ذلك تدوس على كل قيمة نبيلة وكل شعار جميل فيهما تعبير عن كرامة الإنسان وقدسية الإنسانية.

وإن تلك القوى المستكبِرة لتجد بواعثَ سلوكها ومسوِّغاتِ تصرفاتها في طائفة من الأفكار والتنظيرات المحكومة بمنطق ثاوٍ وممتدٍّ في "النموذج الحضاري" السائد الآن منذ بدايات تشكله الأولى قبل بضعة قرون، هو ما يمكن تسميته منطقَ النهايات، من نهاية التقاليد (end of tradition) إلى نهاية الأديان (end of religion) فنهاية الأيديولوجيا (end of ideology) حتى نهاية التاريخ (end of history) ثم نهاية العقل بل نهاية الإنسان (end of man). وهو منطقٌ يقوم في حقيقته على إدامة واقع الاستغلال وتشييء (reification) الحياة الإنسانية وتجريد الإنسان من إنسانيته (dehumanization) وتمييع القيم، بحيث يؤول الأمر إلى فقدان للمعنى وانعدام للمركز، فلا يبقى في حياة البشر إلا ثابتٌ واحد هو ثابت الميوعة والسيولة، في حركة بلا قصد وفعل بلا غاية ونشاط بلا وجهة وسلوك بلا عيار، إلا دوافعَ غريزة لا يتميزون فيها عن كثير من أنواع الحيوان إن لم يكونوا أدنى دركات منها، مهما زعم المتترسون بذلك المنطق والمروِّجون لثقافته غيرَ ذلك ومهما تلبَّسُوا من دعاوى باسم الحضارة أو باسم غيرها مما تزخر به ترسانة الخطاب الهيمني من مقولات ومفاهيم.

والذي يُراد في إطار ذلك المنطق وباسم العولمة وتحت دثارها ليس بناءَ مجتمعٍ إنساني عالمي مفتوح، تتواصل فيه شعوب الأرض وتتكامل ثقافاتها وتتحاور هوياتها وتتعانق مصالحها، بل هو في الحقيقة محاولة للقولبة القسرية لأمم العالم وشعوبه في "نموذج" يعتقد حملتُه ودعاته أنهم أوصياءُ على الإنسانية، فلا يقبلون في واقعها تنوعًا ولا يحفلون منه بتعدد إلا ما يرونه هم

ويقبلونه مما يساير تطلعاتهم ويحقق مصالحهم ويعزز سيطرتهم.

إن الخطر الذي يحيق بالإنسانية بما فيها ذلك القطاعُ منها الذي يتبنى ذلك النموذجَ ويبشر به لا تكفي لدرئه مناوشةُ أعراضه أو معالجة مظاهره أو الوقوف عند سطحياته، بل لا بد من رفع أسبابه واستئصال جذوره. وذلك إنما يكون بثورة روحية وخلقية وفكرية عارمة شاملة؛ تُصَفِّي ثقافةَ الإنسانية مما علق بها من أوضار العقل المادي والوضعي الاختزالي (reductionist)، وتعيد الإنسان إلى فطرته الأصلية وطبيعته الحقيقية، وتحفظ عليه كينونَتَهُ الإنسانية مخلوقًا مكرَّمًا متكاملَ الأبعاد يسمو على سائر المخلوقات قيمة ومكانة، فتعيد من ثم صياغةَ واقعه وتكييفَ علاقاته وبناءَ مؤسساته وتوجيه مساره انطلاقًا من نظرة جديدة ووفقًا لنموذج جديد. ولن يمكن ذلك بدون لقاءٍ مبدع وتوتُّر خلاق يصل بصيرةً إنسانية واعية بهديٍ إلهي راشد يسمو فيهما عقلُ الإنسان التاريخي المحدود بمعانقة خطاب الله المطلق غير المحدود فيكون التجاوز وتكون الثورة الحقيقية التي طالما داعبت أحلامًا وهيجت آمالا.

والله نسأل أن يسدد منا الخطى وينور منا البصائر ويجنبنا مزالق الردى في القول والعمل.